جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية ليهود الجزائر في الفترة العثمانية.

د. محمد دادة*

مقدمة: حرص أغلب الكتاب اليهود على المبالغة في تصوير ألوان الاضطهاد التي تعرض لها اليهود في الجزائر خلال العهد العثماني، متناسين عن عمد ذلك الرخاء الذي شهده يهودهم في مختلف النواحي، ومتجاهلين عن قصد أن الجزائر كانت من أهم المناطق التي أوت اليهود الفارين من وجه الاضطهاد المسيحي في أوروبا، يشهد على ذلك ازدياد عددهم المطرد، والذي ما كان ليزداد لولا شعورهم بالأمن والطمأنينة والسلام.

وقبل أن نتناول جوانب هذا الموضوع يجدر الإشارة إلى أن اليهود لم يشكلوا وحدة عنصرية عرقية، بل كانوا جماعات ترتبط بالدين والتقاليد والعادات، فالموجات المتتالية التي جاءت من أنحاء حوض البحر المتوسط ومن ورائه قد طمست كل الميزات العرقية الواضحة في المنطقة، فبالإضافة إلى العنصر السامي القديم الذي جاء مع الفينيقيين منذ تأسيس قرطاج ثم بعد تهديم القدس في عهد "تيوس" كان هناك عدد لا بأس به من البربر المتحولين إلى اليهودية، وقدمت من شبه جزيرة إيبيريا موجه أخرى ابتداء من العصور الحديثة. وقد لجأ اليهود إلى الجزائر هربا من الاضطهاد الديني الذي كانوا يلاقونه في هذه البلاد، كما قدم إلى المنطقة مستوطنون يهود من بعض المدن الأوروبية منذ بداية القرن **18**، ولا سيما من ليفورن، بحثا عن الثورة والاستغلال التجاري.

ومنذ ذلك الوقت بدأ يظهر فرق واضح بين اليهود المحليين (القدامى والوافدين من الأندلس)، الذين كانوا على صلات طيبة مع المسلمين، وبين اليهود الليفورنيين، الذين أفادوا، بصفتهم أجانب، من نظام الامتيازات. ومن حماية الحكام الأتراك، ومن ثم بدؤوا يسيطرون على الطائفة اليهودية المحلية وعلى اقتصاد الجزائر وسياستها.

*- أستاذ التعليم العالي في التاريخ الحديث - قسم التاريخ وعلم الآثار - كلية العلوم الإنسانية - جامعة وهران.

وقد سمحت طبيعة الحكم العثماني في الجزائر خلال هذه الفترة لليهود الليفورنيين، بتدعيم مراكزهم في البلاد، إذ أدى تردي الوضع الاقتصادي في الإيالة إلى نقص عدد المتطوعين في الأوجاق الجزائري، فعمد حكام الأقاليم العثمانية إلى إرسال الأشقياء والمساجين وقطاع الطرق وحثالة المجتمعات[1]، ومن هؤلاء كان حكام الجزائر، الذين كانوا غير قادرين على تسيير أعمال الدولة لأن أكثرهم توصل إلى منصبه بفضل تمرد الانكشارية المطالبة بزيادة الأجور، بعد أن كان هؤلاء الحكام يباشرون مهنا تعد بسيطة لا علاقة لها بشؤون الحكم. مثل مهنة الفحامين أو الاسكافيين أو الكناسين وأصدق مثال على ذلك: الداي مصطفى، الذي قيل بأنه كان كناسا ورفعه اليهود إلى مرتبة الداي[2] وكذلك الداي علي الغسال، الذي كان يغسل الأموات قبل سنة 1808[3].

وعلى هذا الأساس، يمكن القول منذ البداية، أن فساد الحكم العثماني في الجزائر، هو الذي يسر لليهود الليفورنيين السيطرة على سياسة الجزائر واقتصادها.

التنظيم الطائفي والحياة الدينية: في الواقع أن ثمة حقيقة يصح أن نبدأ بها، وهي أن النظام العثماني في الجزائر ترك لليهود حرية تنظيم أمورهم وعلاقاتهم الداخلية حسب شعائرهم الخاصة وعباداتهم المرعية.

نظر العثمانيون إلى اليهود في الجزائر بوصفهم جماعة متميزة لها ديانتها وعقائدها الخاصة، فوجب عليهم اذن، في ظل التسامح، أن يمنحوهم حرية العبادة والإقامة والسفر والتعليم، وأن يحافظوا على حياتهم وأملاكهم، وألا يتدخلوا في شؤونهم الداخلية التي عهد بإدارتها إلى الرؤساء الدينيين، ومقابل تلك الحماية التي كانوا يتمتعون بها فرضت عليهم ضريبة معينة هي (الجزية).

وفي هذا الصدد يقول القنصل الأمريكي (وليام شالر) في مذكراته، فهم "يتمتعون بحرية تامة في ممارسة عقائدهم الدينية، وهم يخضعون لقوانينهم الدينية في الأحوال الشخصية (....) وبوصفهم رعايا جزائريين يتمتعون بحرية التنقل والإقامة حيث يرغبون، وبممارسة المهنة التي يرونها في حدود القانون في جميع أنحاء المملكة، واليهود غير قابلين للاسترقاق"[4].

كان يتولى إدارة أمور اليهود رئيس من أبناء الطائفة يعينه الحاكم[5] يدعى المقدم أو الشيخ[6] فهو الذي يمثل رعيته في كافة أمورها أمام السلطات العثمانية، ويطلع الوزراء على

جميع مقررات طائفة، ويقوم بتنفيذ أوامر الداي ونزواته الشخصية، فهو المسؤول المباشر عن دفع الضرائب تجاه الإدارة العثمانية، التي كانت تنظر إلى اليهود كوحدة دافعة للضرائب[7].

وبجانب رئيس الطائفة، كان هناك مجلس للطائفة اليهودية (TOBE-HAIR) يتألف من أربعة أشخاص، غالبا ما كان يختارهم المقدم. وقد أختص هذا المجلس بإدارة شؤون الطائفة، وبالناحية المالية خصوصا، إضافة إلى ذلك كان المجلس يقدم خدماته لكل ما يخص الضرائب والمساهمات.

إلى جانب المجلس، كانت هناك وظائف أخرى اشتملت عليها المؤسسة الطائفية مثل وظيفة الكزبار (Guizbar) والكاباي (GABAI) والشابر (CHABER). فالكازبار، هو الموظف الذي اختص بتنظيم المعابد ومراقبتها، كما أختص كذلك بتوزيع الصدقات. أما الكاباي والشابر، فقد اختصا بدفن الموتى، وإلى ذلك اختص الأخير بمراسيم الزواج[8].

وقد كفل النظام الملي المحافظة على حياة اليهود الدينية، ومن الجدير بالتنوية أن المصادر الأوروبية في معظمها تجمع على أنه لم تكن هناك قيود على إقامة دور عبادة في الأحياء اليهودية، ويقول (روزي) بهذا الصدد، أن اليهود كانوا أحرارا في بناء الكنس والأروقة التي كانت تستخدم كغرف للتعليم الديني[9].

ويلاحظ أن أغلب اليهود في الجزائر عاشوا تحت تأثير التقاليد الدينية المستمدة من تعاليم التلمود، وتعلموا مبادئ الديانة مشافهة عن طريق الحاخامية. والجدير بالذكر أن اليهود الليفورنيين، أو اليهود الأحرار كما كانوا يسمونهم، كانوا لا يخضعون للمؤسسة الطائفية، غالبا ما نجدهم يتضايقون من اليهود الأهالي في الكنيس عندما كانوا يشاهدونهم يمارسون طقوسهم الدينية[10].

وكانت الصلوات تقام بالعبرية التي كانت مجرد لغة دينية لا غير، وكان معظم اليهود يجهلون معانيها[11]، ومن الخطأ كما يقرر (وليام شالر) أنهم كانوا يتكلمون اللغة العربية، ولكنهم استخدموا لغة عربية متميزة قليلا من لغة العرب، وممتزجة بكلمات عربية وتركية وإفرنجية[12].

وكان اليهود في الجزائر على مذهبين، فالتلموديون الذين كانوا منقسمين إلى سكليين وكبوسيين يمسونهم الأجانب (Fostareros) أو العجم، والآخرون أي الأهالي ويدعون

توشاييم (Residents) أي المقيمين، والمذهب كان مذهب السفارديم وبعض القرائين. أما الاشكنازيم الذين ينحدرون من أصل ألماني، فلم يكن لهم وجود في الجزائر.

ويلاحظ أن كثيرا من اليهود الذين يشعرون أن أجلهم قد اقترب يسلمون كل ممتلكاتهم لورثتهم ولا يبقون لأنفسهم إلا ما يسمح لهم بسد الرمق في القدس التي يقصدونها ليلفظوا هناك أنفاسهم الأخيرة، ولقد شاهد (وليام شالر) في سنة 1816 عددا منهم وهم يبحرون في آخر حج لهم على متن سفينة استؤجرت خصيصا لنقلهم إلى شواطئ سورية[13]. إلا أن هذا السفر الذي كان يقدم عليه اليهود خلال هذه الفترة، كان يعد مخاطرة كبيرة، لذلك كانت قلة منهم تصل إلى فلسطين[14]. ومما لا شك فيه أن ارتباط اليهود بتراثهم الديني هو الذين كان يربطهم بفلسطين لما كانت تحمله من ذكريات مقدسة، وهو الذي دفعهم إلى المجيء إليها لأسباب دينية لا غير.

الوضع التعليمي: تشهد كتب الأوروبيين الذين زاروا الجزائر خلال هذه الفترة. أن التعليم اليهودي، كان منتشرا في أنحاء البلاد، وأن كل يهودي حسب قول (كوهين) كان يعرف القراءة والكتابة[15].

والدولة العثمانية، كما هو معروف، لم تتدخل في شؤون التعليم وعدته من جملة الأمور المرتبطة بالطوائف الدينية، فخولت الجماعات اليهودية المنتشرة في أنحاء البلاد حق تأسيس المدارس الخاصة بها وإدارتها، وغالبا ما تكون غرفا ملحقة بالكنيس.

ومهما يكن من أمر، فإن الطائفة اليهودية كانت ترمي إلى أن يكون تعليم أبنائها تحت أشرافها حتى توجههم الوجهة التي تريدها، وحتى يشبوا على ولائهم لدينهم وطائفتهم. وفي هذا المجال عنيت بالتعليم الديني وببث المفاهيم الدينية فيهم، كما اهتمت كذلك بمبادئ الحساب لأن التجارة والحرف تقضي معرفة ذلك. ولذلك ظل التعليم اليهودي كالسابق تعليما دينيا بحتا، يبدأ في المترل على يد الآباء الذين كانوا يسهرون على تربية أطفالهم، فلا يدخل الطفل إلى المدرسة ليتعلم القراءة والكتابة إلا وتكون القيم الخلقية والاجتماعية قد ترسخت فيه. أما التعليم في المدارس، فكان يشرف عليه رجال الدين. غير أن طرق التدريس ظلت كالسابق تقليدية لا تعتمد على أية وسيلة تربوية، وكان يغلب عليه الحفظ والاستذكار.

هذا وقد كان التعليم اليهودي الذي أشرقت عليه الطائفة يشمل حسب (كلانسوال) على ثلاث مراحل[16]:

1- المرحلة الأولى: وفيها يدخل التلميذ الذي تتراوح سنة ما بين الرابعة والثامنة إلى المدرسة، ويتعلم القراءة تحت إشراف رجال الدين.

2- المرحلة الثانية: وفيها يدرس الطلاب تاريخ العهد القديم (التوراة).

3- المرحلة الثالثة: وفيها يتلقى الطلاب مبادئ الكتابة والحساب.

أما التعليم في هذه المدارس الدينية، فكان يتم باللغة العبرية، ويذكر (هايدو) أن التلاميذ كذلك تعلموا اللغة العربية التي كانوا يكتبونها بأحرف عبرية[17].

وإذا كان الفقراء يكتفون بهذه المراحل من التعليم، فإن الأغنياء يواصلون تعلمهم فغالبا ما كانت السر الفنية تبعث أولادهم إلى أوروبا، وخصوصا إلى إيطاليا، ليتلقوا مبادئ التجارة ويتعلموا اللغات[18].

الأحوال الاجتماعية: يمكن تقسيم اليهود إلى ثلاث طبقات رئيسية

1- طبقة غنية وتضم التجار الكبار والصرافين.

2- طبقة متوسطة وتضم التجار الصغار وبائعي المفرق.

3- طبقة فقيرة وتضم الحرفيين والباعة الجوالين.

وقد عاش اليهود في حرية، وفي كل مكان عوملوا بتسامح من جانب العرب سواء أكانوا يعيشون في أحيائهم أم في بقية أجزاء البلاد. غير أن اليهود تعرضوا مثل بقية العرب لظلم الأتراك العثمانيين. ولا ينكر أن هذا الظلم تحول في بعض فترات إلى اضطهاد، ولكن يجب ألا يفهم من ذلك، أن اضطهاد اليهود هذا كان لمجرد أنهم يدينون باليهودية. وفي الحقيقة، أن النظام العثماني لم تكن له قوانين مضبوطة ومدونة تحدد ما لقيصر لقيصر وما للرعية للرعية، لهذا ساد الظلم وارتفع الباطل، وقلت ثقة السكان في الحكام. ولكن، ومهما كانت تصرفات الأتراك العثمانيين الشديدة تجاه اليهود، فإنها لم تصل إلى حد التعدي على معتقداتهم الدينية كما حدث لهم في أوروبا، بل نجدهم يتمتعون في الجزائر زمن العثمانيين بحرية العبادة والإقامة، وإلى جانب ذلك عوملوا بإحسان بالنسبة للأمم الأخرى.

وعلى هذا الأساس، فإن سوء معاملة المسلمين لليهود لا ترجع إلى عقيدتهم وإنما ترجع بالدرجة الأولى إلى سلوكهم وأخلاقهم وتصرفاتهم تجاههم. وليس هناك دليل واحد يقيم الحجة على أن المسلمين أساؤوا معاملة اليهود لمجرد أنهم يهود. فالمسألة سياسة بالدرجة الأولى.

وعلى أية حال، فالعلاقة بين اليهود والمسلمين كانت حسنة طوال هذه الفترة ما عدا فترات محدودة لقي اليهود بعض المضايقات الخفيفة، وخصوصا في أواخر العهد العثماني، بسبب الظروف الصعبة التي مرت بها البلاد، وفيما يخص هذه الفترة بالذات، فإن الجزائر قد تعرضت لمجاعات وأوبئة، وكان طبيعيا أن يستغل اليهود هذه الظروف ليزيدوا في الأسعار، الأمر الذي أدى إلى نقمة المسلمين عليهم.

النشاط الاقتصادي: نتج عن وجود العنصر اليهودي النشيط في البلاد الجزائرية خلال هذه الفترة من العهد العثماني، نشاط اقتصادي غير معهود، برز في مختلف المجالات الاقتصادية من صناعة وتجارة وخدمات أخرى. ولا نبالغ إذا قلنا إن اليهود أثروا تأثيرا بليغا في الحياة الاقتصادية، وذلك اعتمادا على القاعدة الوثائقية لهذه الفترة التي توضح بشكل جلي تفوقهم الكبير في هذا الميدان.

ومهما يكن من أمر، فإن اليهود ساهموا يقينا في تنشيط اقتصاد البلاد، ونحن نعلم أيضا أنهم كانوا ذوي خبرات راقية ومتعددة في ميادين الصناعة والتجارة.

ويلاحظ أن عددا كبيرا من اليهود كان قد استقر بالمدن الكبرى التي اشتهرت بالتجارة وبموقعها الجغرافي، في الجزائر، وقسنطينة، ووهران، قصد الارتزاق. لكن القطاع الذي استهواهم، بدون منازع، أكثر من غيرة هو قطاع التجارة، لأن التجارة كما هو معروف كانت أكثر الحرف التي تدر على أصحابها الأرباح الطائلة. فلا عجب إذا ما طرق اليهود الباب أكثر مما طرقوا غيره، ولا سيما أن مهارتهم وخبرتهم بالبلاد المسيحية التي تجري معها المبادلات تؤهلهم إلى ذلك أكثر من غيرهم.

1- النشاط الصناعي: يحسن بنا، قبل كل شيء، الاشارة إلى أننا لا نعرف شيئا عن الزراعة عند اليهود خلال هذه الفترة، وأكبر الظن أنهم لم يعملوا بها[19] وقد كان معظمهم يشتغل في الصناعات الحرفية والتجارة وأعمال أخرى، فقد عمل اليهود في مختلف الحرف، لا سيما الأعمال التي تتطلب المهرة والنشاط، وتفوقوا بها على سائر أهل البلاد. فلم تكن هناك

صنعة إلا وزاولوها، غير أنهم فضلوا ممارسة بعض المهن والصناعات مثل الخياطة والصباغة والغزل والحياكة وصناعة المطرزات[19] كما عملوا في صناعة الزجاج[21] ومقابض البنادق[22] إلى غير ذلك من الصنائع الشائعة في ذلك الحين.

ومن الصناعات المهمة التي ارتبطت بالوجود اليهودي بالجزائر صناعة الذهب والفضة التي برعوا فيها بشكل لا يجاريهم فيه أحد، والتي أصبح لها شارع خاص بمدينة الجزائر عرف بشارع الصاغة حيث محلات اليهود، التي اختصت بصناعة الحلي من الذهب والفضة. وفي الوصف الذي خلفه لنا (راهبندر) من القرن الثامن عشر للجماعة اليهودية بمدينة الجزائر، "نجد أن اليهود كانوا يمارسون الحرف التي تتصل بالمعادن الثمينة، لا سيما منها التي تتعلق بالذهب والفضة، وكانت ورشاتهم لمزاولة هذه الصناعة تقع بالقريب من قصر الداي في زقاق ضيق ووسخ، بالإضافة إلى أن معظمهم كان يعمل في سك العملة .."[23]. وكانت هذه الصناعات التي تتمثل في الحرف، تمارس في مختلف مدن الإيالة منظمة في هيآت تتولى كل واحدة صناعة نوع محدد من الأدوات والملابس التي يحتاج إليها السكان في الحياة اليومية. وقد انحصرت مهام أمناء هذه الهيآت أو النقابات في الإشراف على أصول المهنة والحرص على جودة البضاعة وتحديد كميتها.

ب- النشاط التجاري: كانت التجارة في الفترة التي ندرسها من أبرز مصادر الثروة، وكان اليهود يعتمدون عليها لكسب رزقهم. فنجد اليهود الذين كانوا يقطنون بمدينة الجزائر يمارسون تجارة القوافل التي تمتد بين الجزائر وقسنطينة، ويعكفون بصفة خاصة على تجارة الحرير والنسيج والأقمشة والمصابيح الأوروبية وخردوات أوروبا[24]. واعتمد أهل البلاد على اليهود اعتمادا كليا لتزويدهم بكل متطلباتهم من السكر والشاي والأقمشة التي أوصلوها عن طريق الباعة المتجولين إلى أقصى المناطق النائية في الداخل[25]. فاليهودي بعمله هذا كان أشبه بالدكان المتنقل، فهو يعرض خدماته ويقدم القروض بفوائد مرتفعة، وأن اضطرته الظروف ذهب على تخوم الصحراء ليبادل سكانها بما تحمله بغاله من حبوب مقابل ريش النعام والجلود والتبر[26].

وفضلا عن ذلك، نجد أغلب اليهود عن ذلك قد حصلوا على ثروات ضخمة نتيجة السمرة والمراباة والقيام بدور الوساطة في كل العمليات التجارية مهما كانت بسيطة أو تافه

حتى أصبح العربي في مدينة الجزائر على حد تعبير (روزي) "لا يستطيع أن يبيع دجاجتين بدون وساطة مأجور من أحد اليهود"[27].

ومن جهة أخرى، كسب أغلب اليهود قد حصلوا على ثروة طائلة وفوائد جمة من استغلال العبيد أو افتدائهم، وقد أصبحوا الوسطاء الحقيقيين لهذه الحرفة بفضل تمتعهم بمستوى رفيع من التكوين والتدريب بالإضافة إلى مرونة الشخصية ومعرفتهم باللغات السائدة في حوض البحر المتوسط، وإلى العلاقات التقليدية التي تربطهم مع مختلف البلدان.

وكانت الجزائر قد دخلت منذ قرون عديدة في حروب مع الدول الأوروبية، حيث ظلت هذه الحروب تعد موردا مهما للدولة، وإذا كانت البضائع تباع في كثير من الأحيان بأسعار رخيصة، فإن افتداء العبد كان في أغلب الأوقات له فائدة كبيرة.

وكان العبد لا يطلق سراحه إلا بعد أن تدفع عنه قيمة الفدية. وحتى وأن حصل الأسير على مبلغ كاف من بلده ليعود إلى أهله سالما، فإنه كان يواجه صعوبة كبيرة في إيصال الأموال إلى أصحابها الحقيقيين، لأن إرسال الفدية إلى العبد أو إلى سيده كان عرضه للخطر وخوفا كذلك من هذا الأخير الذي ربما يحتفظ بالأسير ومبلغ الفدية معا. ولتلافي ذلك أوجد اليهود في العصور الوسطى نظام (الكمبيالة).

بذلك تمكن اليهود من احتكار التجارة الخارجية التي كانت بيدهم خلال هذه الفترة، أكثر من أي وقت مضى، بفضل المكانة الممتازة التي اكتسبوها بسرعة لدى تجار البيوت التجارية في البلدان الأوروبية والإفريقية، فكانوا يستغلون مهارتهم التجارية وفرصة انعدام البنوك في تنشيط التجارة وخلق القروض والضمانات بفوائد خيالية إلى أن أصبحوا من كبار الأثرياء، بسبب الخدمات الجليلة التي قدموها للدايات وكبراء الدولة الذين منحوهم حق الاحتكارات التجارية، وأوكلوا إليهم تنظيم المدفوعات الخارجية وتقويمها فأصبحوا باستثماراتهم التجارية بمثابة البنوك يقدمون التحويلات النقدية والقرضية والحسابية بين الجزائر وأوروبا. وقد ساعد التجار اليهود على تنظيم المدفوعات التجارية من قروض وسندات ونقود ما كان لهم من وكلاء وبيوت تجارية في مختلف المدن التجارية المهمة في أوربا وإفريقيا وأسيا. والمثال على ذلك، أن عائلتي بكري وبوشناق كان لهما وكلاء في عديد من المدن في حوض البحر المتوسط مثل قرطاجة ومرسيليا وجنوة وليفورن ونابولي وأزمير والإسكندرية وتونس،

وبفضل هذا التنظيم الإداري التجاري كان على التاجر سواء كان جزائريا أم أوروبيا أن يوفي بدينه لهذه الوكالات اليهودية عن طريق المراسلة دون نقل السبائك الذهبية، في فترة اشتدت فيها الحروب البحرية، وهانت فيها النفوس إزاء كل معدن نفيس.

ولقد احتلت المبادلات التجارية مع مدينة ليفورن مكانة كبيرة نظرا لوجود عدد كبير من التجار اليهود فيها، الذين وجدوا كل التسهيلات التجارية حيث ركزوا الوكلاء والمشرفين على التجارة لتأمين بضائعهم التي كانوا يرسلوها إلى شمال إفريقيا وأوربا والمشرق[28]، كان اليهود يستعملون موانئ الجزائر، فيصدرون إلى ليفورن مقادير من القمح الصلب لا نستطيع تحديد كميتها لعدم وجود الاحصاءات، وكذلك كميات من المرجان وريش النعام والجلود والصوف وبعض المنتوجات المحلية الأخرى[29].

وبالمقابل كانوا يستوردون منها بعض المصنوعات والخردوات وكثيرا من الرخام والأقمشة الحريرية والحلي وغيرها[30]....

من المؤكد أن العلاقات التجارية اليهودية بين الجزائر وأوربا كانت قائمة خلال هذه الفترة التي ندرسها، وكانت تتطور تدريجيا، غير أننا لا نستطيع تقييمها بدقة لعدم وجود الإحصائيات المضبوطة، لأن اليهود كانوا يهملون الكتابة والقيد لتجنب الضرائب التي كانت تفرض على البضائع المصدرة والمستوردة. ولكن الأمر الذي نعرفه أن ليفورن ومرسيليا احتلت مرتبة ممتازة في استيراد المواد الأولية من الإيالة منتفعة بالطائفة اليهودية المحتكرة لثلثي التجارة الخارجية للجزائر[31].

غير أن الشركة التي تزعمت هذا النشاط هي شركة بكري وبوشناق التي كان لها محلات في عديد من المدن الجزائرية. والمعروف أن احتكار هذه الشركات للتجارة لم يكن مصادفة وإنما كان نتيجة تكاتف أفرادها وعملهم على استمالة الشخصيات الرسمية والأعيان في البلاد، بالإضافة إلى الوسائل المختلفة التي كانوا يستعملونها ابتداء من الهدايا الثمينة والمساعدات المالية إلى التجسس في الداخل والخارج لحسابهم ولحساب الحاكمين الذين يرغبون في استعطافهم.

وبهذه الطريقة تضاعفت رؤوس أموال الشركة اليهودية بسرعة فائقة واستطاعت أن تنفذ بقوة إلى المحيط الرسمي، حيث تمكنت من الاستئثار برعاية اثنين من الشخصيات البارزة آنذاك هما الدايان: بابا حسن (1792-1798) ومصطفى (1798-1805).

وهناك من يميل إلى القول بأن هذين الدايين لهما حصة مما كانت تحصل عليه المؤسسة اليهودية من أرباح طائلة، ولكننا نعتقد أن هؤلاء اليهود أنما تمكنوا من الفوز بثقة السلطات، لأن عيونهم كانت منتشرة في كل أنحاء البلاد تزودهم بجميع المعلومات بتحركات القبائل. وكان المسؤولون المركزيون يحتاجون إلى مثل تلك المعلومات لتدعيم أوضاعهم وللحفاظ على مناصبهم، كما أنهم لم يكونوا يخشون من اليهود أن يستولوا على الحكم.

وهذه الثقة التي أحرزوها في مختلف المستويات، كانت سلاحا حادا لهم وعليهم في الوقت نفسه، إذ بقدر ما كانت تفتح لهم منافذ الثروة واسعة، كانت كذلك تعرضهم من حين إلى آخر لسخط الأجناد والأهالي الذين كانوا يستنكرون تقربهم من الحكم.

أما خارج الإيالة، فإن شركة بكري بوشناق قد فرضت نفسها في كثير من البلدان الأوروبية ولا سيما في فرنسا التي كانت مركزا مهما لنشاط اليهود التجاري والدبلوماسي فكان تنظيم الشركة يقوم على أساس توزيع العمل بين الشركاء، فبينما كان أولاد بكري يقومون بإدارة الشؤون المالية والتجارية للشركة، كان بوشناق يقوم بالعمليات السياسية في قصر الداي، ويشترك في حبك المؤامرات، ويوزع الرشوة والحظوة كما يشاء، وقد بلغ من النفوذ درجة جعلته يلقب في الأوساط الدبلوماسية يلقب "ملك الجزائر"[32].

وهكذا، كان لهذا الوضع التجاري الذي سيطر عليه اليهود تأثير خطير على الأوضاع الاقتصادية للبلاد، زيادة على الآثار السلبية على حياة السكان، وذلك بفعل مزاحمة اليهود في كل الأعمال التجارية. وبالفعل فقد تسبب هذا الوضع في إعاقة نمو الطبقة التجارية المحلية بعدما آلت كل الصفقات المربحة والمبادلات المهمة إلى أيدي التجار اليهود بفضل الامتيازات التي كانوا يحظون بها من البايلك[33].

دور اليهود في السياسة الخارجية الجزائرية: بعدما أحرز اليهود ثقة السلطات الحاكمة، وتولوا ما يشبه الوصاية على عرش الداي وسيطروا على الحياة الاقتصادية، أخذوا يوسعون نطاق عملياتهم لتشمل الشؤون الدبلوماسية.

وفي الوقت الذي وجه فيه اليهود نشاطهم نحو أوربا، كانت المؤسسات الفرنسية في الجزائر تعاني وضعا سيئا بسبب العجز المالي التي كانت تمر به الحكومة الفرنسية آنذاك، وهذا ما جعلها تستعين بشركة بكري وبوشناق لتموين فرنسا بالحبوب.

وعندما قامت الثورة الفرنسية، تعرضت فرنسا خلال هذه الفترة لأزمات حادة سياسية واقتصادية. بالإضافة إلى أنها كانت في حالة حرب مع دول أوربا وقد حاولت الحكومة البريطانية الضغط على الداي للحيلولة دون وصول القمح إلى فرنسا، ولكن الداي حسن رفض الطلب البريطاني، وعلى أثر ذلك لجأ قنصلها إلى الشركة اليهودية وحاول أن يستعين باليهوديين بكري وبوشناق لمنع وصول شحنات القمح إلى فرنسا. غير أن الانتصارات التي أحرزتها الجيوش الفرنسية ضد "الحلفاء" لم تلبث أن فتحت أعينهما فسارعا إلى المطالبة بمنحهما امتيازا لتموين فرنسا بالقمح، وحصلا على هذا الامتياز بدون صعوبة.

ولكن علاقات فرنسا والشركة اليهودية سيعتريها بعض الفتور ولفترة قصيرة في أواخر القرن الثامن عشر، حينما سمعت الحكومة الفرنسية بأن الشركة اليهودية تزود الحامية الانجليزية المرابطة في مضيق جبل طارق، وعلى أثر ذلك عمدت الحكومة الفرنسية إلى تجميد ديونها. وفي **26** نيسان **1797** كتب "دولاكروا"، وزير خارجية فرنسا إلى زميله وزير المالية رسالة ينصح فيها باتخاذ إجراء التجميد، جاء فيها قوله: "وباحتفاظنا بالمبالغ المستحقة لليهوديين بهذه الطريقة سنمنعهما من التحول عن مصالحنا ونضطرهما إلى التزام تحفظ أكبر في طرق تعاملهما مع الانجليز، الذين لا يخدمانهم بهذه الحماسة إلا لأن وجودهم في شمال إفريقيا يشير في نفوسهما الأمل في تحقيق أرباح أخرى"[34].

ومثل هذا الإجراء هو الذي جعل الداي حسن في **18** أيار **1797** يتدخل، ويكتب إلى حكومة فرنسا رسالة حملها اليهودي سيمون فند فيها جميع الاتهامات وأكد "إخلاص اليهوديين بكري وبوشناق لكل ما يخص مصالح الأمة الفرنسية"[35].

ولكن عندما خرج "دولاكروا" من وزارة الخارجية وحل محله "تاليران" في تموز **1797**، تنفس اليهوديان بكري بوشناق الصعداء، وسارعا إلى ربط علاقتهما "بالشيطان الأعرج" الذي تحول إلى محامي بليغ الحجة وحليف قوي لليهود، مما جعل يعقوب بكري يكتب إلى أخيه إبراهيم بكري قائلا: "إذا لم يكن الشيطان الأعرج في يدي، فأنا لن أعتمد على شيء في الدنيا بعد الآن"[36].

فمن الواضح أن تاليران في ذلك الحين، كان يدرك النفوذ الكبير الذي وصل إليه اليهود، فكان عليه أن يأخذ في الاعتبار مجمل العلاقات الجزائرية الفرنسية، التي كان اليهوديان مفتاحا

لها، وهكذا كانت المسألة بالنسبة إلى "تاليران"، هي كيف يحافظ على استمرار تموين فرنسا بالحبوب ويضمن عدم تحول "عواطف" اليهود، وبالتالي الداي إلى إنجلترا.

وبينما كان الصراع على أشد ما يكون بين الجزائر وإنجلترا في عام **1800** الذي كان من المحتمل أن يؤدي إلى حرب بين البلدين، تدخل بوشناق في وضع حد لهذا النزاع، حيث حصل من الداي على قرار يمنح العلم البريطاني مكانة الشرف في الإيالة، وأكثر من ذلك، فإن الداي نفسه أدى التحية للسفينة التي تحمل القنصل الانجليزي السيد فالكان **FALCAN** في **11** أيول **1800**[37].

وفي السنة التالية، أي في سنة **1801** كان لبوشناق شرف استقبال قناصل الدانمارك والسويد وهولندا، وتسلم منهم باسم الداي الهدايا التي تدفعها دولهم إلى السلطات العثمانية في الجزائر. وكان له الشرف كذلك أن يفاوض في معاهدة الصلح بين الإيالة وفرنسا، وأن يقدم للداي في**17** كانون الأول **1801**، القنصل الفرنسي الجديد لهذه الأمة، السيد "ديبواتافيل"[38].

وفي **28** آب **1803** استقبل مبعوث البرتغال، السيد "لازارو جوزيف"، الذي كلف بالتفاوض بشأن معاهدة السلام، وقام هذا اليهودي بالمفاوضات بين الجزائر والبرتغال من بدايتها حتى نهايتها، والتي فشلت بسبب الشروط القاسية التي فرضت على البرتغال. وفي **11** كانون الثاني **1804** استقبل بوشناق مبعوث السلطان في الاستانة، الذي كلف بمهمة صعبة في الجزائر، فقد اضطر هذا المبعوث إلى التحدث مع بوشناق قبل أن يمثل أمام الداي، مما جعل القنصل الأسباني، الذي لاحظ حالة مماثلة، أن يطلق على هذا اليهودي بكل بساطة اسم "نائب ملك الجزائر"[39].

تلك بعض الأمثلة لتدخل اليهوديين بكري وبوشناق في نواحي حيوية من سياسة البلد الخارجية.

الثورة على اليهود: كان السكان خلال سنوات طوال يشاهدون في صبر وتحمل كبير نفوذ اليهود وهو يزداد توغلا مع مرور الزمن في أعمال الحكومة وفي شؤونها الحسابية وأسرارها المالية، وفي الحياة الاقتصادية والسياسية.

يقول "دو غرامون"[40] أن مختلف عناصر السكان وقفت ضد اليهود، بالإضافة إلى الانكشارية والحضر، كان هناك أفراد طائفة البراني وأصحاب الحرف البؤساء الذين كانوا

يكرهونهم كذلك. فجميع المظالم والجرائم التي ارتكبها الأتراك كانت تعزى إليهم، وحتى الموظفين وقفوا ضدهم وكانوا على استعداد للإطاحة بهم.

وهكذا، فإن جميع الفئات تضررت من معاملتهم، كالمزارعين الذين كان اليهود يشترون منتجاتهم بأبخس الأثمان ويبيعونها بأسعار خيالية، والتجار الذين اقترضوا من اليهود المال بالربا الفاحش، والأهالي الذين كانوا يشترون من اليهود البضائع الفاسدة المغشوشة. وزيادة على ذلك، فأنهم تسببوا في تجويع الشعب باحتكارهم المواد الغذائية الضرورية لحياة السكان مثل الحبوب، التي كانوا يرفعون أسعارها ويصدرونها إلى الخارج في أوقات القحط والمجاعات، دون مراعاة لشعور السكان وحاجاتهم الأساسية.

ولقد وقع العديد من المحاولات لاغتيال اليهودي بوشناق الذي كان على صلة وثيقة بالدوائر الحاكمة في البلاد، ورأينا كيف استطاع هذا اليهودي أن يستبد بالحركة الاقتصادية العامة بمختلف الطرق الشرعية وغير الشرعية، وعلى الرغم من كل محاولات الاغتيال، فإن هذا اليهودي مضى في تحديه وفي جرأته وغطرسته، وجرت محاولتان لاغتياله في الشارع بضربه خنجر، ونجا في كل مرة دون أن يصاب بأذى. وفي **28** حزيران **1805**، في الساعة السابعة صباحا، وبينما كان بوشناق خارجا من قصر الداي، سدد إليه انكشاري يسمى "يحي" مسدسه وأطلق النار قائلا:"تحية إليك يا ملك الجزائر" وهرع الجند وسيوفهم مسلولة إلى مكان الحادث، وقال لهم يحي:"لقد قتلت اليهودي .. فهل أنتم من كلاب اليهودي" وعند ذلك تركوه وشأنه وخرج ولما عاد إلى ثكنته حمله رفقائه على أكتافهم، وأخذ كل واحد منهم يتلمس طريقة "ليسلم على اليد التي خلصت البلد من المستبد". وأما مصطفى داي الذي أخذ يرتعد خوفا من الخطر، فبدلا من أن يأمر بإلقاء القبض على الجاني الذي ارتكب الحادث في قصره، بعث إليه بسبحته رمزا للعفو عنه[41].

وما أن ذاع خبر اغتيال اليهودي بوشناق في المدينة حتى انفجرت الفتنة بشكل كبير، وقامت مظاهرة شعبية اشتركت فيها جميع عناصر السكان من الجند والحضر والأندلسيين والقبائليين والبسكريين والأباظيين، واتجهت إلى الحي اليهودي، بحيث راحوا ينتقمون بالقتل والسلب والنهب والإحراق، ويشجعهم في ذلك النسوة اللواتي كن يشاهدن هذه الأحداث من فوق السطح[42].

فيما يخص مصير مصطفى داي، فانه بعدما شعر بالخوف على حياته، عرض على الانكشارية أن يسمح لهم بنهب المدينة إذا قبلوا أن يتركوه على قيد الحياة. ولما رفضوا طلب إليهم أن يسمحوا له بالسفر إلى المشرق، غير أنهم رفضوا هذا الطلب كذلك، مما جعله يحاول الهرب مع الخرناجي والتوجه إلى ملجأ يحميه من غضبة الجماهير، ولكنها لحقت به فذبح وسحبت جثته في الشوارع، ثم رميت عند "باب عزون"، وهكذا مات مصطفى داي والشعب غاضب عليه.

ولأجل تهدئة الانكشارية وعدهم الداي الجديد بطرد جميع اليهود من المدينة ماعدا أصحاب الحرف الذين لا يمكن للسكان الاستغناء عنهم.

ومنذ الأيام الأولى من وقوع المصيبة التي حلت باليهود اسرعت مجموعة كبيرة من العائلات للهرب خوفا من القتل والنهب. ففي 1 تموز هاجرت نهائيا من المدينة الجزائر 100 عائلة يهودية إلى تونس و200 عائلة أخرى إلى ليفورن في 10 تموز 1805[43].

ومما يلاحظ أنه على الرغم من جميع هذه الانتفاضات العنيفة، فإن الطائفة اليهودية ظلت بعد هذه الأحداث تعيش في سلام ووئام مع السكان العرب.

كما أن الأغلبية منهم كانت بعيدة من الصراعات والمؤامرات التي جرت بين الأسر اليهودية الليفورنية للسيطرة على أمور الطائفة. وأن جميع الأموال التي جمعها هؤلاء اليهود كانت على حساب السكان من يهود وعرب وأتراك على السواء.

ولكن، ومهما كانت تصرفات العثمانيين الشديدة تجاه اليهود، فإنها لم تصل إلى حد التعدي على معتقداتهم الدينية كما حدث لهم في أغلب بلاد أوربا، حيث كانوا يتعرضون هناك لأبشع الأحقاد، وكانوا يعيشون في عزلة، وظلوا عرضة للطرد والاضطهاد والتشريد.

وعلى أية حال، فقد أتيح لليهود في المجتمع الجزائري خلال هذه الفترة مكانة مرموقة سمحت لهم بالقيام بدور اقتصادي وسياسي كبيرين، بسبب الثقة التي كانوا يحفظون بها من المسؤولين العثمانيين، الذين يسروا لهم السيطرة على شؤون البلاد. وبذلك راحت إطماع اليهود تزداد باستمرار، كما ازدادت الامتيازات التي أعطيت لهم رسوخا، وأصبح من المستحيل إخضاعهم، فكانت النتيجة دمار الجزائر وتسهيل احتلالها.

الهوامش:

1- Plantet, E., Correspondance des Deys d'Alger avec la Cour de France, t.I, Bou Slama, Tunis, 1981, P. XVI.

وكذلك فارس، محمد خير، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، مطابع ألف باء- الأديب، دمشق 1969 ص 70- 82 و 81- 87.

2- Esquer, G., La Prise d'Alger 1830, La Rosse, Paris 1929, P. 20.

3- Grammont, H.D. de, Histoire d'Alger sous la domination turque (1515- 1830), E. Leroux, Paris 1887, PP. 369- 370.

4-شالر، وليام، مذكرات وليام شالر قنصل أمريكا في الجزائر (1816- 1824)، وتعريب وتعليق وتقديم إسماعيل العربي، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص 89.

5-المصدر نفسه، ص (89).

6-يقول هايدوا أن رئيس الطائفة اليهودية في الجزائر كان يعرف باسم قسيس، إلا أن الاسم كان يدل على رئيس الطائفة المسيحية راجع:

Haedo, F.D. De, « Topographie et histoire générale d'Alger », in Revue Africaine, 1870, P. 91.

7- Trapani, D., Alger telle Qu'elle est ou tableau statistique, morale et Politique de cette régence, Paris 1830, P.21.

8- لمزيد من المعلومات حول التنظيم الطائفي راجع:

Cahen, A., Les Juifs dans l'Afrique septentrionale, L.Arnolet, Constantine, 1867, PP. 75- 88.

9- Rozet, M.P., Voyage dans la regence d'Alger, A. Bertrand, Paris 1833, t. III, P. 83.

10-Pananti, F., Relation d'un séjour a Alger contenant des observations sur l'état actuel de cette régence, trad. De. L'anglais par Blanquiére, Le Normont, Paris 1820, P. 228.

11- Rozet, Op. Cit., t. II, P. 241.

12- Martin, C., Les Israélites algériens de 1830 à 1902, Herakles, Paris 1936, P. 36.

13- شالر، وليام: المصدر السابق ص (92).

14- Mainz, E., « Les juifs d'Alger sous la domination turque ». in Journal Asiatique, TCCXL, 1952, P. 217.

15- Cohen, M., Le Parler arabe des juifs d'Alger, Champion, Paris 1912, P. 14.

16-Clausolles, M.P., l'Algérie pittoresque ou Histoire de le régence d'Alger, Paris 1843, P. 96.

17- Haedo, Op. Cit., P. 91.

18- Rozet, Op. Cit., t. II, P. 253.

19- Leynadier, et Clausel, Histoire de l'Afrique Française, Paris 1846, P. 153.

20- Haddey, H.J.M, Le Livre d'Or des Israélites algériens, Alger 1871, P.9.

21- Grammont, Op. Cit. P. 44.

22- Emerit, M., « Les Quartiers commerçants d'Alger à l'époque turque » in Algéria , Février 1952, P.12.

23- Cite par. Eisenbeth. M., « Les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque turque » (1516- 1830). In Revue Africaine, 1952, P. 334.

24- Raynal. Gt., Histoire philosophique et politique des établissements et du commerce des européens dans l'Afrique Septentrionale, Paris 1826, t. II, p.92.

25- Boudia, M. la formation sociale algérienne précoloniale, o.p.u., Alger 1981, p.180.

26- Emerit, M. « les liaisons terrestres entre le Soudan et l'Afrique du Nord au 17e siècle et au début du 19e siècle », in travaux de l'institut de recherches sahariennes, No 19, 1954, p.37.

27- Rozet, Op.Cit, t II, pp. 226-227.

28- Filippini, J.P., « Livourne et l'Afrique du Nord au 18e siècle », in Revue d'histoire Magrébine, N° 7-8 (1977), p. 145.

29- Haddey, Op-Cit., p. 42.

30- Ibid, p. 44.

31- Julien, CH. A., Histoire de l'Afrique du Nord, Payot, Paris 1964, p. 240.

32- لمزيد من المعلومات حول شركة بكري وبوشناق راجع الزبيري، محمد العربي، التجارة الخارجية للشرق الجزائري قبل الاحتلال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر 1979، ص (255-285).

33- Perrot, A.M., Alger, Esquisse topographique et historique du royaume et de la ville, Paris 1830, p. 26.

34- Esquer, Op-Cit., p. 24.

35- plantet, Op-Cit., p. 463, Note I.

36-Bloch, I., Inscription tumulaire des anciens cimetières israélites d'Alger, A. d'Urlancher, Paris 1888, p. III.

37- Ibid, p. 96.

38- Ibid, p. 96.

39- Ibid, p. 97.

40- Grammont, Op-Cit., p. 360.

41- Ibid, p. 361.

42- Ibid, p. 361.

43- Bloch, Op-Cit, p. 102.